



القرآن الكريم رسالة السعادة، ودستور السلام، السلام الروحي في سريرة المؤمن، والسلام الاجتماعي فيما يأخذ الناس ويدعون من شؤون الحياة.

وقد يكون من العجيب أن نرى كتاب السلام يحضر على القتال ويجعله على المؤمنين به فريضة مكتوبة في مقل قوله تعالى: [كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ] {البقرة:216}.

فإن السلام والقتال يبدوان في التقدير العام أو في رأي النظرة العابرة ضددين لا يلتقيان في رسالة واحدة، ولكن التفكير الهادئ والنظر المتذر، لا يرى في ذلك أي داعية من دواعي العجب، ويرى افتراض القتال لوناً من ألوان السلام، أو ضرورة من الضرورات لإقراره، على ما فيه من مكاره العناء والبذل، وما يصيب الناس من جروح وتشويه، وإزالة بعض أعضاء البدن، وإزهاق للروح، على نحو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله: [كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ] {البقرة:216}.

وليس المعمول عليه في حقيقة السلم، أن تتقدس أموال الناس وتسلمه من التلف، أو أن تترف أبدانهم، وتنجو من العطب، فالسلم في الحقيقة سلم الروح، حين تزدهر في المجتمع رياض الخير والفضيلة والمثل العليا، وال الحرب حرب الروح، حين يُقفر المجتمع من صور الإيثار والسماحة والفضل، والكرامة والطهر.

ورب سلم شر على فضائل الإنسان من كل حرب، ورب حرب يتنسم فيها ضمير المرء روح اليقين وأرجح الملا الأعلى، وهو مما يعنيه الحق سبحانه بقوله: [وَعَسَىٰ أَن تَكُرْهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌ لَّكُمْ] {البقرة:216}. [وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِعَضٍ لَهُدِمَتْ صَوَامِعٌ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا] {الحج:40}.

ذلك هو القتال الحق الذي كتبه الله على المسلمين، أما الفرنجة فأمرهم كله حرب، سلمهم سلم للإثم والشهوة والترف والتحلل من كل فضيلة روحية... وحربهم حرب ينفع فيها شيطان الأنانية، والبغى والغدر، والطمع الذي لا يقف عند حد، فهم مع أنفسهم ومع الله في حرب دائمة نعوذ بالله منها...

والقرآن الكريم حين يعرض لوقائع القتال، لا ينحو في تسجيلها نحو المؤرخين، ولا يسرد أنباءها سرد المراسلين الحربيين، ولكنه نمط عجيب يعرض عليك من حوادث الأبطال، وكلمات الرجال، ما هو جدير بالخلود والتسجيل... نمط يريك الروح المعنوية للمقاتل المسلمين، أعظم ما تكون الروح المعنوية قوة، وأنقى ما تكون طهراً، وأصفى ما تكون إشراقاً...

على أن هذا النمط ينفرد بلون من الإعجاز، إذ يبيت في ثنايا الحوادث والمقالات، قوانين الحرب، وأحكام القتال، وآداب الجهاد... فتقراً حين تقرأ دروساً في البطولات القوية المثيرة، دون أن تشعر بما اعتاد الناس أن يشعروا به حين قراءة القوانين من الملل والركود... فهي بطولة مؤسسة على القانون... وقانون يعرض نفسه عليك في أنباء البطولة، فإن قلت: إن سر القانون ليس القوم فكانوا أبطالاً، فأنت صادق، وإن قلت: إن القوم صاغوا بأعمالهم صوراً حية لهذه القوانين فأنت صادق، والقرآن الكريم إنما يرمي إلى كلا المعنيين: يشيد بفضل القوانين ليبعث بالهمم إليها، ويشيد بأعمال المؤمنين لتكون منوالاً لمن ينسج عليها.

والمقام يقتضينا أن نورد طرفاً من آداب هذا القتال الكريم، وقوانينه التي تُظهر سموه وفضله، ذهاباً مع نفحة الخير التي تطالعنا كلما عرضنا للون من توجيهات القرآن الكريم.

1 - فمن هذه الآداب والقوانين ما يوجب أن يكون القتال في سبيل الله: وقد قرأ المسلمون هذه المادة وفهموها، وروعوها حق رعايتها، لأن قلوبهم استوعبتها، وأمنت بها حق الإيمان ونحن نكتفي بأنواع ثلاثة من ألوان القتال في سبيل الله.  
الأول: نشر توحيد الله سبحانه، وتحرير عقائد الناس من الخضوع لأي طاغوت يتعارض مع هذا التوحيد، وذلك إذ يقول الله تعالى:[وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ] {الأنفال:39}. أي: أن تكون أوضاع الناس في معاملاتهم وخفايا سرائرهم محكومة بسر: لا إله إلا الله.

الثاني: تحرير الأوطان وتخلص أهلها المستضعفين من ذل السيطرة الأجنبية، والله تعالى يقول: [وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبِّنَا أَخْرَجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقُرْبَةِ الظَّالِمُ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا] {النساء:75}.

الثالث: تأديب الغادرين الذين نكثوا أيمانهم ونقضوا عهودهم، وهذا قول الله سبحانه:[أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ] {التوبه:13}.

وقد نزل هذا القرآن في مشركي قريش لما نقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.  
2 - ومن هذه القوانين ما يوجب على المقاتل أن لا ينتظر أجرًا على قتاله إلا من الله سبحانه، وذلك قوله تعالى:[فَلْيَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ] {النساء:74}. أما الذين يشرون الحياة الآخرة بالدنيا فليسوا من أهل هذا القانون.

وجزاء الله مكفول لا محالة في الدنيا لمن كتب لهم النصر والغلبة، ومكفول في الآخرة لجميع المقاتلين:[فَلْيَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا] {النساء:74}.

هَلْ تَرَيَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ] {التوبه:52}. والحسنيان هنا هما: النصر في الدنيا، وأجر الشهادة في الآخرة إذا كان القتل...

وأحب بهذه المناسبة أن أنبئه إلى خطأ يقع فيه بعضهم بحسن نية، ذلك أنه يفسر إحدى الحسنيين بأنها مغامن القتال عند النصر، والأخرى بأنها ثواب الشهادة...

وجه الخطأ أن المقاتل المسلم إنما يبغي وجه الله لا وجه عرض من أغراض الدنيا، ومقصد القتال في سبيل الله، مقصد سامٍ جليل، يجب أن ننزعه عن أن يكون وسيلة لأغراض رخيصة كهذه.

هذا إلى أن جعل مغامن القتال إحدى الحسينين في مقابل أجر الشهادة في الآخرة مما لا يسيغه أهل الفقه المستنير، فأين هذه المغامن اليسيرة مما أعده الله للشهداء من جزاء لا يحيط به وصف الواصفين؟ والله تبارك وتعالى يقول: [قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا كَلِيلٌ] {النساء: 77}. فانظر ماذا تقع هذه المغامن من متع الدنيا القليل، ثم انظر ماذا تقع من أجر الشهادة الضخم الجزيل...

وسل نفسك بعد هذا: هل تطمئن إلى أن تكون هذه المغامن في ميزان الله إحدى الحسينين مقابل أجر الشهداء؟! إن الذي يطمئن إليه ضمير المؤمن، أن تكون عزة النصر هي إحدى هاتين الحسينين، وهو الذي يساير قول الله تعالى: [وَمَنْ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا] {النساء: 74}. فهل يسمى الله مغامن الحرب أجرًا عظيمًا، وهو الذي يقول عن متع الدنيا كلها: إنه قليل؟

وبعد فما كان المؤمنون عبيداً درهم ولا دينار، وهم يحملون سيفهم بأيديهم، وقلوبهم في صدورهم لا تهتف إلا بالله ولا تنظر إلا لثوابه... فإذا وقع أخيراً بين أيديهم شيء من الأسلاب والغنائم، فهو شيء قد أحله الله لهم، ولكنه لا يمكن أن ينزل في قلوبهم منزلة الفرح بنصر الله سبحانه.

3 - ومن هذه الآداب ما ينص على أن مصدر القوة والتأييد الذي يلقاء المسلمين في قتالهم، هو الله سبحانه وتعالى، فليس لمخلوق قوة ذاتية إلا أن تكون مستمدة منه جل شأنه... وقد وصف الله ذاته بأنه القوي، وأنه ذو القوة المتين، وأنه الفاهر فوق عباده، ولكن الجامع لقوته سبحانه، المانع أن يكون لغيره قوة، هو قوله تعالى: [لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ] {الكهف: 39}.

إذا حرك المؤمن يده ليضرب بها، فإنما يحركها بقوة الله، لا بقوته هو: [قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيهِمْ] {التوبه: 14}. وكم صرخ المسلمين الرجال، وجندلوا الأبطال، فنزل القول الحكيم يقرر الحق فيما فعلوا: [فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَاتَلَهُمْ] {الأنفال: 17}.

ولقد جاء الرجل فقال: يا رسول الله إن القوم قد جمعوا لك عددهم وعدتهم، وأرى أن تستقبل أمرك بشيء من الحذر والخشية، فنظر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عرش الله، فإذا قوة ساحقة ماحقة، لو توجهت إلى كل من في الأرض وما في الأرض جميعاً لجعلته لا شيء، فزاد إيمانه صلى الله عليه وسلم بالله، وقال: حسبنا الله: [الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَأَخْشُوْهُمْ فَرَأَدُهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَتَعَمَّ الْوَكِيلُ] {آل عمران: 173}.

وليس هذا بغرير من أدبه الله بمثل هذا الأدب في قوله: [أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ] {الملك: 20}.

ولقد كان بعض المسلمين يدخل عليهم أحياناً - من باب السهو - شيء من الإعجاب بكثتهم، فيتحقق بهم في الحال ما يردهم إلى حقيقة قانون الله: [وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَيْنُكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدْبِرِينَ] {التوبه: 25}.

4 - ومن قوانين هذا الدستور الحربي الكريم، أن نصر الله ليس هبة توهب، ولا منحة تمنح بدون مقابل، وإنما شرطه أن ينبعث المرء فعلاً إلى الجهاد في سبيل الله: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ وَيُبَتِّئَ أَقْدَامَكُمْ] {محمد: 7}. فمن تمنى على الله الأمانى وقعد في بيته ينتظر أن ينصره الله، فقد دل من نفسه على غفلة خائبة، وأضاع عمره في غير جدوى. ونظام العمل في هذه المادة أن تنهض نهضة قوية شاملة، وأن تأخذ بكل الأسباب الممكنة، وأن نعذر إلى الله باستفراغ كل ما في الطاقة من جهد، ولو كان جهد المقل، فهذا وحده مفتاح نصر الله، وهو وحده السر الذي تحرك به جنود الله في السماء والأرض.

واعلم أن كثيراً من آيات القرآن الكريم تدور حول هذه القوانين، وتحتمل بها من قريب أو بعيد، فتشرحها شرحاً مستفيضاً... ولو أردنا أن نسردها كلها لامتد بنا القول، ولكن حسبنا ما مضى.

وأعود أخيراً فأقرر أن القرآن الكريم في هذه الناحية لا يسرد أخبار الجيوش وحركات الجند، بل يقرر هذه القوانين ونحوها، ويذكر من أقوال المجاهدين وأعمالهم ما هو تطبيق لها، وتفسير عملي لأسرارها، وتجريب واقعي لصحة موعدها، فلا بد من استحضار هذا كله في الذهن، عندما نقرأ أنباء هذا اللون الدامي من ألوان الجهاد في سبيل الله، فإن الآية حينئذ تفصح لنا عن مكنونها، بأكثر مما كانت تفصح من قبل.

وأقرأ على هذا إن شئت غزوات: بدر، وبني النضير، وأحد، والخندق، وبني قريطة، والحديبة، وحنين، وتبوك، في سورة آل عمران، والأنفال والتوبة، والأحزاب والفتح و الحشر، فإنك واجد إن شاء الله ما حدثناك به. نسأله سبحانه أن يهدينا بهديه، وأن يجعل كتابه الكريم ربيع قلوبنا، وجلاء بصائرنا، إنه سميع مجيب. وصلى الله على سيدنا محمد وآلـه وصحبه وسلم

المصدر: مجلة منبر الإسلام السنة الرابعة عشرة، جمادى الأولى 1376 هـ العدد الخامس.

المصادر: